مجلة الدراسات الفقهية والقضائية • مجلد: 06، عدد: 01 (2020م) • ص ص47 – 66
EISSN 2588-2481 - ISSN 2477-9806

دور علماء وادي سوف في نشر المذهب المالكي بالجنوب الشرقي الجزائري

The role of scholars of Ouedi Souf in spreading the Maliki school of legal thought in southeastern Algeria

بقلم

أ. د. علي غنابزية *

جامعة الوادي ـ الجزائر

alijadla@gmail.com

▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣▣

ملخص

كانت منطقة سوف أباضية المذهب لعدة قرون، ولكن تحولا طارئا حولها بسرعة إلى المذهب المالكي الذي دخلها مع هجرة العرب بقوة منذ القرن السابع الهجري، وأخذت المدرسة الفقهية الملكية تظهر بملامحها ولاسيما في القرن الحادي عشر الهجري(17م). هذا البحث يعالج دور علماء وادي سوف في نشر المذهب المالكي بالجنوب الشرقي الجزائري.

الكلمات المفتاحية: العلماء؛ وادي سوف؛ المذهب المالكي؛ الجزائر؛ الجنوب الشرقي.

Abstract

Oued Souf has been following the Ibadhi school for centuries. but an emergency shift quickly transformed it into the Maliki school, which entered it with the immigration of Arabs strongly since the seventh century AH. The Maliki school of jurisprudence began to emerge with its features, especially in the eleventh century AH (17 AD). This research deals with the role of scholars of Oued Souf in spreading the Maliki school of legal thought in southeastern Algeria

Keywords: Scientists; Oued souf; The Maliki school of thought Algeria; southeast.

* المؤلف المراسل.

المقدمة

كانت منطقة وادي سوف أباضية المذهب لعدة قرون، ولكن تحولا طارئا حولها بسرعة إلى المذهب المالكي الذي دخلها بقوة . مع هجرة العرب . منذ القرن السابع الهجري، وأخذت المدرسة الفقهية المالكية تظهر بملامحها ولاسيما في القرن الحادي عشر الهجري(17م) حينما تبلورت خصائص المذهب وفق مميزات المنطقة وبساطة حياتها الاجتماعية والاقتصادية والتي تركت بصماتها جلية في مظاهر الحياة الثقافية والنشاطات العلمية في المدارس العربية الحرة، والمساجد العريقة، وفي الزوايا التي استمدت مرجعيتها العلمية من المذهب المالكي وسهرت على نشره، وتدريس أصوله ومنظوماته في مختلف فروعها، وكان لعلماء سوف دورهم الفعال في حمل هذا الفقه أثناء حلهم وعند ترحالهم في مختلف ربوع صحراء الجزائر، بل تعداه إلى شمال وادي سوف، وإلى الجوار الدولي في ليبيا وتونس، ولكن منطقة الجنوب الشرقي كانت الأكثر نشاطا نظرا للعوامل المساعدة، ومنها تعدد الحوافز، وتقارب المواقع، وضرورة التربية والتعليم.

1) دخول المذهب المالكي لوادي سوف:

كانت بلاد المغرب الإسلامي، امتدادا فكريا لبلاد المشرق، تتأثر بكل النشاطات الفكرية والعلمية في الحواضر التاريخية بالحجاز والعراق ومصر، وشهدت كل التطورات المذهبية، ودخلها أتباع المذاهب المختلفة من خوارج ومعتزلة، وأحناف ومالكية، وشيعة، وفرضت بعض الدول القائمة مذاهبها بالقوة، ورغم ذلك استبسل أتباع المذهب المالكي، وكانت لهم الغلبة في تثبيته بكامل البلاد. ومنذ عهد الموحدين تقرر مذهب المالكية، ودان الناس بالعقيدة الأشعرية في بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) وسائر بلاد المغرب الإسلامي. ماعدا المناطق التي انتمت للمذهب الأباضي في وادي ميزاب وجزيرة جربة

بتونس، وجبل نفوسة بطرابلس الغرب[1]

وكانت وادي سوف أباضية أمازيغية، لبعدها في أطراف الصحراء، ولكن القبائل العربية التي تبحث عن مواطن أكثر ملاءمة، وجدت سبيلا إلى هذا الإقليم، وأولها قبيلة عدوان التي كانت ضمن قبائل هلال وسليم بنواحي الكاف والقيروان، وازدادت أعدادهم، وتزاحموا على المراعي التي ضاقت بهم، فخرجوا إلى الأطراف، فوجدوا ارض الجردانية في شمال وادي سوف، ذات المراعي المناسبة، ولكن سكانها من بربر زناتة رفضوا إقامتهم، وبعد صراع دموي رجحت كفة قبيلة عدوان، وتشتت سكان الجردانية في الآفاق، وكان ذلك في حدود 600هـ/1204م، [2] ويومئذ فتح باب الهجرة العربية نحو وادي سوف، وتتابع المهاجرون أفرادا وجماعات، وحدث الاختلاط بسكان البلاد، وتعرب قسم من السكان نتيجة التزاوج والالتحام الاجتماعي، وتمتين أواصر القرابة، وامتزجت تلك السلالات بالدماء العربية،[3] التي طبعت المنطقة بتلك العناصر الجديدة. وكانت قبيلة عدوان الوعاء الذي حفظ المنهج عند إقامتهم بافريقية، ونقلو المذهب إلى وادي سوف، ووقفوا بشموخ أمام كل أشكال الانحراف العقائدي ولاسيما التبشير المسيحي، واستطاعوا تطهير البلاد من كل المخاطر، وخلصت للعقيدة الصافية، والإسلام الثابت.

ويومئذ استمرت الدولة الموحدية في حكم المغرب الإسلامي الموحد لمدة قرن ونصف، ولكنها انهارت بالكامل سنة 668هـ/1269م، وتمزقت أوصال المغرب الإسلامي إلى دول متصارعة لمدة قرن كامل، ويومها كانت وادي سوف متاخمة للدولة الحفصية التي حكمت افريقية وجزء من المغرب الأوسط. وأهم العوامل التي ساعدت على دخول المذهب المالكي وتثبيته بوادي سوف:

1) هجرة القبائل العربية من تونس إلى أطراف وادي سوف، في وقت مبكر

خلال القرن السابع الهجري، بنزول قبيلة بني عدوان، وحملت معها المبادئ الأولية للقيم الدينية، ولحقت بها قبيلة طرود، واستقرت بمدينة الوادي خلال القرن التاسع الهجري، وحينئذ صار المذهب مشهورا ببلاد المغرب الإسلامي، ووقع صراع مع الفرقة الاباضية وانتهى التدافع إلى خروج بربر زناتة من سوف، فبقيت المنطقة خالصة للمذهب المالكي.[4]

2) ارتباط وادي سوف بالسلطة الشابية، التي ربطتها بالعلاقات الاقتصادية والثقافية ، وزارها سيدي عرفة الشابي في القرن العاشر الهجري،[5] وكان يعرف عند المشارقة بالمالكي، والذي بذر فيهم القيم الدينية، وبث الروح الإسلامية، ورغم ذلك استمر الجهل، وضعف التمسك بالدين، وانتشرت بينهم الخرافات والأساطير.[6]

3) رحلات المغاربة إلى الحج، واحتكاكهم بسكان المنطقة، أو الالتقاء بهم في طريقهم الأساسي شمال الزاب، فيتبادلون المعارف والعلوم، ويتحاورون في المسائل الفقهية والعقائدية.

4) تنقل رجال العلم والصلاح في محور يمتد من القيروان وبلاد الجريد، نحو المغرب الأقصى ونواحيها، ومثلت منطقة وادي سوف محطة، للراحة والاستقرار بعد العودة بالزاد العلمي، ونلمس ذلك في رحلة سيدي مستور، وسيدي عبد الله بن أحمد، واستمر ذلك إلى وقت متأخر في بداية القرن التاسع عشر، عند الشيخ سي العربي بالغنبازي، الذي درس بمدينة فاس، وعاد لتبليغ علمه للناس.[7]

5) الزيارات المتبادلة بين علماء وادي سوف والبلاد التونسية، وكان لها أبلغ الأثر في دعم المذهب، ولاسيما زيارات الداعية سيدي المسعود الشابي،[8] ودعوته الصادقة، إلى تشييد المساجد بالوادي وقمار في أواخر القرن السادس عشر، والتي ساهمت في تثبيت معالم المذهب المالكي بوادي سوف، وازدهر

خلال القرن السابع عشر، حين اتضحت ملامح المدرسة المالكية في منطقة الجنوب الشرقي، المتقاربة في رقعتها الجغرافية ومنظومتها الفكرية.

2) دور فقهاء وادي سوف في نشر المذهب المالكي بالجنوب الشرقي:

عرفت منطقة الجنوب الشرقي ارتباطا وثيقا، بحكم الجوار بين أقاليمها المتعددة في ورجلان، ووادي ريغ، وبلاد الزاب، وسهولة الاتصال بين سكانها، ووجود ظروف ساعدت على انتشار المذهب المالكي في ربوعها، وكان لعلماء الشابية. بالتعاون مع أهل سوف. دورهم في إيصال صوت العلم، وبث الفقه في وادي ريغ بالخصوص،[9] وخلال القرن السابع عشر انتشر المذهب في ووادي ريغ، وتعداه إلى ورجلان، وبدأ يتميز عن المذهب الأباضي، وكانت الكتابات التاريخية تؤكد على أهمية المساجد المالكية، مثلما ذكر الرحالة المغربي العياشي، عندما مر بورجلان في بداية عام 1663م، ومما قاله: (وكان دخولنا لمدينة ورقلة عشية الخميس وأقمنا الجمعة واليومين بعده، ودخلنا المدينة لحضور صلاة الجمعة، وصلينا بجامع المالكية، وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن والخطأ والتحريف والتقديم والتأخير...) [10] مما يدل على أن المدينة كانت في أمس الحاجة إلى العلماء، وكان العياشي يبحث وينقب في أحوالهم، ويقيس المستوى العلمي، ومدى اهتمامهم بالكتب الدينية واللغوية والسير، وطلب من الإمام أن يطلعه على ما في بيته من الكتب: (ثم لقيت إمام المسجد بعد ذلك وأدخلني إلى منزله واحضر لي ما عنده من الكتب فإذا عنده أجزاء من الموطأ ومن البخاري ومن الأكمل وبعض شراح المختصر والرسالة غالبها لم يكمل...) [11] واطلع على مكتبة أمير ورقلة بسعي من الإمام، وذكر ذلك: (...فأدخلني إلى كتبه، فإذا عنده نحو أربعين سفرا من جملتها "التوضيح" والتتائي وبهرام وحواشي على الصغرى...) [12] وهذا يؤكد على مساهمة ركب الحج المغربي في ترسيخ المذهب في عموم البلدان.

ويعتبر الشيخ سيدي خليفة بن حسن القماري(1711–1796) من أوائل العلماء الذين متنوا الروابط، ونشروا العلم، ورحلوا به إلى بلاد الزاب ولاسيما إلى بلدة بسكرة وسيدي عقبة، وخنقة سيدي ناجي، وكان يلتقي بركب الحج في الخنقة، واعترف له علماء المغرب بالرسوخ في العلم، وأجازوه أثناء مرورهم بالزيبان، ومن هؤلاء الشيخ عبد القادر بن أحمد بن شقرون الفاسي،[13] وسماه (الفقيه الفاضل الجامع لأشتات الفضائل المشارك المتقن والبارع المتفنن ذا الخلق الحسن سيدي خليفة بن حسن) [14]

ورغم تخرج الشيخ خليفة من مدرسة الخنقة،[15] إلا أن اجتهاده وبحثه المستمر بوأه مقام التفوق، وشهد له علماء الخنقة بذلك، ففي زمنه سرق أحد الرجال ويدعى "ابن خليل القماري" فحكم عليه سيدي خليفة استنادا إلى آثار أقدامه التي أكدها العارفون بهذا العلم، فذهب ابن خليل إلى علماء خنقة سيدي ناجي فاستفتاهم في ذلك فأفتوه بعدم التعويل على (الجرة . أي آثار أقدام الإنسان على الرمال) فراسل سيدي خليفة أولئك العلماء، وأجابهم بنظم أوضح فيه بالأدلة الشرعية، ضرورة العمل " بالجرة " ، فأذعنوا له وفهموا قصده لِمَا رأوه من قوة حجته، وخبرته، ومعرفته ببيئة وادي سوف، وعرفها الاجتماعي الذي لا يختلف عليه العقلاء من أهلها؛ واستهل الشيخ نظمه بالثناء والاعتراف لعلماء الخنقة بالمكانة العلمية والصلاح، قائلا:

سلام له في الصالحات أصول ❋ يوافيه من عند السلام وصول
إلى السرج الأثبات من أهل خنقة ❋ لهم في ندور الواقعات نزول
رؤوس سراة صالحون أجلة ❋ شموس رشاد ما لهن أفول[16]

وبعد المقدمة المتأدبة، وجه اللوم لهم، لعدم خبرتهم بالمنطقة، وعرَّفَهم بأهمية التعرف على عرف القوم قبل إصدار الحكم الشرعي، وضرورة الأخذ (بالجرة) ، وأهميتها في منع الجرائم والتقليص من حجمها:

ومن أدب المسؤول قبل جوابه ❋ إذا وردت يوما عليه سؤول
تعرف عرف السائلين بأرضهم ❋ ليعرف ما يفتي به ويقول
وما أنتم منا بأعلم بالذي ❋ به الضر يبدو عندنا ويزول
ففي الأخذ بالآثار إصلاح أمرنا ❋ وفي الترك عن قصد السبيل عدول
وما الأثر إلا كالخطوط شهادة ❋ كذا مال بعض في القياس نبيل

وساق لهم شواهد عديدة، ووقائع من السنة مفيدة، ومسائل فقهية مشهورة، وحقائق علمية منثورة.[17]

وهكذا صارت المنطقة معروفة بالمذهب المالكي، وارتفعت منارته، وظهر ذلك جليا عندما حاصر صالح باي قسنطينة، مدينة تقرت سنة 1788، فاضطر سلطان تقرت الشيخ فرحات بن جلاب إلى الاستسلام. بعد معاناة السكان. وأمر برفع الراية البيضاء فوق مسجد يسمى جامع المالكية كما ذكرت الكتابات الفرنسية.[18] وكانت وادي سوف تمد الأقاليم المجاورة بالعلماء، الذين أناروا دروبها، واستقطبت وادي ريغ ثلة منهم في القرن التاسع عشر وبعده، أولهم محمد العربي بن موسى موساوي، الذي أرسى نهضة علمية في مدينة تقرت،[19] وخلفه في الإمامة تلميذه الشيخ الطاهر العبيدي، الذي عُرف بينهم بلقب " بابا الشيخ "[20] وأرسل أخاه أحمد لبلدة تقديدين القديمة ودرس بمسجدها،[21] وتلميذه وابن شيخه، الميداني موساوي الذي أرسله للتعليم ببلدة نقر، في ضواحي تقرت،[22] وخلال الستينيات، قام الشيخ مبروك الشامسي بدور هام في تقرت ولاسيما بمسجد بابا ساسي، ورحل معه طلبته من مدينة الوادي، وعلمهم فروع الفقه المالكي، مع طلبته الجدد بتقرت.[23]

3) **المدرسة الفقهية المالكية بوادي سوف**:

كانت مدة خمسة قرون (1204–1790) كافية لتبلور المدرسة المالكية بوادي سوف، وكان الشيخ سيدي خليفة بن حسن، الذي عاش في القرن الثامن

عشر، رمز المدرسة، وقد أرسى قواعدها، وثبت معالمها، ومثل روحها العلمية، وقلبها النابض بالحياة، المتدفق بالعطاء، وسهر على خدمة الفقه المالكي، ببحثه المتواصل العميق، ونظمه الرائق الدقيق، الذي سهل للخاصة والعامة، فقه سيدي خليل بن إسحاق، بنظم سماه " جواهر الإكليل نظم مختصر خليل" واستغرق في تأليفه ونظمه، ومراجعته مدة عشر سنوات، وفرغ من تأليفه سنة 1192./1779م، عندما بلغ من الكبر عتيا، وفي نفس السنة التقى في بسكرة بالشيخ عبد القادر ابن شقرون فقرأ أجزاء من نظمه، ووصفه بأنه من فرسان البراعة،[24] ومما كتبه الفاسي في نسخة المؤلف:(وقد أطلعني على نظمه الجليل، لمختصر أبي الدنيا خليل مكتوب هذا على أول ورقة منه، فطالعت منه البدء والختام، ومواضع منه أنبأتني على أنه مقدام، من فرسان البراعة وأئمة اليراعة، إذ هو نظم عذب الموارد ومهذب المقاصد سلس العبارة رائق الإشارة... وقد طلب مني.. أن أوقع عليه ما تيسر. فأسعدته إسعاد محب صادق، فرقمت له هذه الحريفات...) [25] وبدأت المدرسة تتشكل في الحواضر العلمية الثلاث بوادي سوف، وهي مدينة قمار، والزقم، والوادي، ويمكن الوقوف عند أهم خصائصها التالية:

.الجمع بين الأصالة والتجديد: ولاسيما في الوقت الراهن كما أشار الشيخ عز الدين عباسي في كتاب الفتاوى الموسوم: " تحفة السالك إلى خير المسالك (فتاوى وإرشادات في رحاب الدين والحياة) وهو ثمرة البرنامج الإذاعي منذ 1996 في إذاعة سوف الجهوية، والذي صدر في طبعته الأولى سنة 2008 في خمسة مجلدات، ومما قاله في هذه المسألة: (ومن مزايا الكتاب أيضا أنه جامع بين الأصالة في المضمون والمحتوى والحكم، والحداثة في الشكل والصورة..).[26]

.التمسك بالمذهب مع الاعتماد على الآراء الأخرى عند الضرورة: فالتمسك بروح الفقه المالكي، لا يعني الجمود، بل يعتمد الفقيه على مختلف المذاهب

والآراء والاجتهادات عند الضرورة الاجتماعية، وحل مشاكل الناس، مثلما ذكر الجيلاني العوامر، عن والده الشيخ إبراهيم: "وتولى الشيخ إبراهيم القضاء بالمحكمة الشرعية بوادي سوف فألبسها ثوبها الحقيقي بتنظيم الأحكام وتطبيقها حسب الفقه الإسلامي لاسيما مذهب الإمام مالك، وكان الشيخ المرجع والمفتي في جميع القضايا سواء داخل المحكمة أو خارجها طبقا للمذهب المالكي، وفي بعض الأحيان يخرج عن هذا المذهب إلى سواه من المذاهب الأخرى قصد تيسير الأمور على المستفتين معتمدا على قول الله تعالى: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾. "[27] كما أشار إلي ذلك صاحب تحفة السالك: (من مزايا الكتاب مرة أخرى أنه رغم استناده إلى ما صح من الفقه المالكي فإنه غير متحير ولا منغلق فإذا دعت الحاجة واقتضت المصلحة طلب هذه المسألة في غيره من الشافعي أو الحنبلي وصدق البوصيري حين قال:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفا من الديم).[28]

. إتباع اليسر في إصدار الأحكام: وتقديم الهدي القرآني في الفتاوى، (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ونجد هذا عند الشيخ العبيدي، ولاسيما في العبادات، فيأخذ بمذهب أبي حنيفة، مستدلا بالآية السابقة،[29] وتعامل بها الشيخ عز الدين عباسي في الفتاوى السابقة.

. السهر على تعليم الفقه المالكي: سعت المدرسة المالكية بوادي سوف إلى تعليم عامة الناس في المساجد والزوايا والمنتديات والبيوت، والمجالس والساحات، أساسيات الفقه، واعتمد متن ابن عاشر (الحبل المتين) كمادة للحفظ، تكتب في اللوح وتحفَّظُ للصغار مع القرآن الكريم،[30] وتلحقها متون وكتب فقهية أخرى عندما يكون الطالب نشطا، وهذا جعل الفقه في متناول معظم المصلين والمقبلين على المساجد، ونشأت في المجتمع ثقافة فقهية تعتمد أساسيات الدين، وبرزت طائفة من المتفقهين العوام، يدعى أحدهم

"المستمع" وهو الشخص الذي يلازم حلقات الفقهاء والمدرسين ردحا من الزمن فتتكون عنده ملكة حفظ لآيات القرآن، ولأحاديث سيد الأنام، ويجتهد في رصد الأحكام، وبعضهم تكون أسئلتهم، زينة مجالس العلم في حلقات المساجد، وعند سكوتهم يتحرج الشيخ المدرس، وينبههم، بقوله: (رقدت يا فلان؟!..) مثلما كان يفعل الشيخ الميداني موساوي بالمسجد العتيق بمدينة الوادي، وكان بعض المستمعين المواظبين على حلقته منهم: الطالب الساسي بالحسان، وأحمد الجامعي(الشايع) وعبد الله بالعربي(مصباحي)، [31] وكانوا يسألونه أثناء الدرس، ويثرون مواضيعه، ويضفي على درسه الحيوية والنشاط.

ويومئذ يتشبع المستمع بالمعارف الفقهية وخصوصا فقه العبادات، وبعضهم يصبح مقصدا للسؤال، ونذكر منهم:

. الشيخ الأزهاري قديري: (1900–1998) الذي فتح دكانا الخياطة في سوق مدينة الوادي الواقع وبحي لعشاش، وفسح فيه المجال رحبا لأشهر علماء وادي سوف، فكان يجتمع فيه الشيخ الطاهر العبيدي، والشيخ الميداني موساوي، والشيخ أحمد العبيدي، والشيخ محمود القروي، والشيخ لزهاري الحرزولي،[32] كل صباح، فيتسامرون ويتدارسون المسائل الفقهية، ويجيبون عن أسئلة الناس، وتحول الدكان إلى منتدى للفتوى، ومقصدا لعامة الناس، وبطول الملازمة للفقهاء، صار الشيخ فقيها مستوعبا لشتى المسائل المطروحة، وبعد وفاة جلسائه، تبوأ مكانهم، بما حباه الله من ذكاء،[33] وعصامية قلدته وسام العلماء، وتمكن من فقه مالك وبلَّغهُ بأسلوب بسيط ميسر.

. الشيخ أحمد وبري: (1892–1976) وهو أحمد بن بلقاسم الذي اشتهر بالشول، وكان يمتلك دكانا صغيرا بسوق الوادي، يبيع به زيت الزيتون الصافي، والدسم النقي، وكان دكانه يستقبل أهل العلم ولاسيما الشيخ أحمد العبيدي، وكان الشيخ أحمد الشول، مستمعا مواظبا على حلقات الفقهاء،

ودائم القراءة في الكتب الفقهية المالكية،[34] فاكتسب زادا معرفيا، وثروة فقهية، مكنته من إلقاء دروس للعامة في مساجد حيه بأولاد أحمد، وخصوصا مسجد سيدي بوعلي، وتمكن من نقل الفتاوى للعامة،[35] وتقديم نصائح للناس، مثلما ذكر الشيخ التجاني القدة، عندما كان يُحَفِّظُ القرآن لأخيه بلقاسم قدة، ويكتب اللوح، وينهيه ببعض الأبيات من المنظومات، لأنه سمع من أحمد الشول يقول: (اللّي يحفظ متن الأجرومية ومتن ابن عاشر يأخذ نصف المادة العلمية). فتشجع لذلك وحفظ تلميذه تلك المنظومات العلمية.[36]

واستطاعت المدرسة المالكية. بوادي سوف. أن تعمق الأحكام في الوسط الاجتماعي، وساقها الناس في أمثال شعبية، سهلة الحفظ، مختصرة اللفظ، مثل قولهم" اللّي مَات ابَّاه قدَّام جَدَّه يخرُج ابقَدَّه"، أي يحرم من الميراث، وكتب في هذا المجال كتاب بعنوان : "الحبل اسلت اربط بيه العامة لاش تنفلت"[37] وتعرض المسائل الفقهية في كلمات خفيفة مثل قولهم:

. " النية في نحان لكسية": ويقصدون بها (النية في الغسل)، والنية فرض لازم، ولا تحتاج إلى التلفظ، وتكفي النية الحكمية، أو العملية، بمجرد نزع اللباس، فيحصل المقصود، قال ابن عاشر:

فصل فروض الغسل يحتضر ❊ فور عموم الدلك تخليل الشعر[38]

. يقولون:"اغسل لفتي وما أتشاور حتى مفتي"[39] ويقصدون بها (الغسل أثناء الوضوء) هو الغسل الصحيح، لأطراف اليدين، بتمرير الماء على كل العضو، مثلما يفعل من يغسل الخضار من نوع "اللفت".

. يقولون:"إذا حضر المي يغيب التيمم" [40] ويقصدون (الذي ينوى التيمم فحصل على الماء) ومعناه أن الذي تيمم وقبل أن يصلي حضر الماء، عليه أن يتوضأ للصلاة، ولا يكفيه التيمم، لأنه صار منقوضا، وقد أشار إليها ابن عاشر بقوله:

وجود ماء قبل أن صلى وإن * بعدُ يجِدْ يعِدْ بوقت إن يكن[41]

. يقولون:"لا يصلح للعادة ولا للعبادة"[43] وهو (الماء الفاسد عديم الفائدة الدينية والدنيوية) وهو الماء النجس الذي عبر عنه الفقهاء بالماء المخلوط:(...والمخلوط إن كان مختلطا بنجس وتغير به لونه أو طعمه أو ريحه فهو نجس لا يستعمل في العبادات والعادات...)[42] ويضرب المثل السابق في الغالب على الإنسان الذي انعدم ضميره، وساء خلقه، فيكون حاله مثل الماء النجس، منبوذا، لا فائدة ترجى من استعماله.

. يقولون:"عاود ما صليت"[44]: هي من (دواعي إعادة الصلاة)، ويضرب المثل عادة للذي شك في الصلاة، أو حدث بطلان لسبب أكيد، فالإعادة واجبة، وأخذ هذا المعنى ليضرب به المثل في سائر المعاملات التي يخطئ صاحبها، ويتحتم عليه إصلاح ما وقع.

. يقولون:" اللي حج حج واللي عوق عوق" [45] ويعنون (نتيجة إتمام مناسك الحج) فالحاج هو الذي يؤدي مناسكه تامة، والمعوق هو الذي يفوته الوقوف بعرفة، ولا يمكنه أن يجبر ذلك بدم، لحديث النبي ﷺ:(الحج عرفة، من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك) رواه أحمد وأصحاب السنن.

. يقولون:"يوم صومكم يوم نحركم"[46] ويعنون (العلاقة في الوقت بين بدء الصيام ويوم الأضحى) فهي مثل شعبي، يحوي مقولة فلكية، أثبتت التجارب صحتها في كثير من الأحيان. [47]

. يقولون: "إكرام الميت دفنانه"[48] ويشيرون إلى (المسارعة بدفن الميت) وهي ترديد لما ورد في شرح مختصر خليل للخرشي، ووردت عن بعض العلماء، وفيها معنى المسارعة بدفن الميت، فإن من السنة تعجيل دفن الميت لما روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال:« أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة فخير تقدمونها عليه، وإن يكن سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم». وقال ﷺ:« إذا مات

أحدكم فلا تحبسوه، وأسرعوا به إلى قبره». قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري :أخرجه الطبراني بإسناد حسن.

وهذه الأمثال جعلت الفهم يتغلغل في المجتمع، وذلك دفع مجذوبا إلى حل معضلة للفقهاء، عندما طلب منهم رجل مريض أسرف على نفسه في الذنوب والمعاصي، أن يفتوه هل يغفر الله له، لأنه لم يفعل خيرا في حياته، فحاروا في الجواب، فتكلم الرجل المعتوه وكان على مقربة منهم، وقال لهم: "احسبوه فلان اليهودي أسلم الساعة، فالله يغفر له."

. التركيز على المتون المنظومة: فأكثر ما كتب من المسائل العلمية بوادي سوف، غلب عليه النظم، ونجد ذلك عند الشيخ خليفة بن حسن، الذي تعتبر منظوماته الفقهية واللغوية، من أقدم الموجود في التراث العلمي بالمنطقة، وحذا سبيله معظم الفقهاء ومنهم أحمد دغمان القماري، والشيخ محمد الطاهر التليلي، والشيخ الطاهر العبيدي والشيخ أحمد العبيدي، والشيخ إبراهيم العوامر، وهذا الأخير جمع بين المنثور والنظم، وله على سبيل المثال كتاب المسائل العامرية على مختصر الرحبية نظما، وكتاب في رؤية الهلال نثرا.

. التأكيد على الموضوع المحوري في المنظومات الفقهية: لقد كانت الكتب الفقهية المتداولة في وادي سوف على اختلاف أنواعها، سواء مختصر خليل أو الرسالة ، أو ابن عاشر، تتناول الفقه بكل أبوابه، ولكن الفقهاء في وادي سوف، عمدوا إلى اختيار جزئيات الفقه وفروعه، وكتبوا فيها، مثل منظومة العمل بالجرة، والثانية في مسألة طلاق، حررها كتابة الشيخ سيدي خليفة بن حسن، وكتاب المسائل العامرية في علم الميراث للشيخ إبراهيم العوامر، والشيخ الطاهر العبيدي أفاض في ذلك في رسالة الستر، وأخرى في أحكام العدة، ومنظومة في التيمم، وأخرى في سجود السهو، ورسالة الحيض والنفاس وأحكامها وغيرها من المحاور المركزة، وهكذا صار الشيخ الطاهر

العبيدي يسمى عند الناس " مالك الصغير" وهو لقب لا يعطى إلا لمن تمكن من المذهب المالكي.[49]

.التواصل مع علماء تونس لتحري الحق: عرفت منطقة وادي سوف زيارات علماء تونس، وخصوصا في القرن التاسع عشر، ولعبوا دورا في نشر العلوم، والتأكيد على الأصول، وشرح الكتب والمتون، ومنهم الشيخ محمد المكي بن عزوز، والشيخ محمد الخضر الحسين، ومحمد بن حمد النفطي، وكانت المسائل الخلافية، ترسل إلى تونس، ويترقب أصحابها الجواب لعدة شهور، والرضا بتحقيق العلماء بدون عصبية، مثلما حدث في عقد بيع، وقع بين الرجل القماري والتاغزوتي، وأراد الحفيد إرجاع البيع، وحكم علماء من قمار وتاغزوت بعدم جواز إرجاع البيع لأن البيع صحيح، وموافق للعرف المتفق عليه بوادي سوف، ولما وقع الخلاف، حرر الفقيه الأخضر بن أحمد بن حمود القماري الفتوى سنة 1255هـ/1839 وأرسلت إلى الشيخ إبراهيم الرياحي بتونس، فحكم بخلافها، وأجاز بالأدلة الرأي القائل بجواز إرجاع البيع؛ ولكن القضية حلت صلحا، بتدخل أهل الخير والفضل، وأعطي القائم شيئا من المال، وأبقى على النخيل لمشتريه.[50] ويشهد علماء تونس برسوخ قدم علماء سوف، والحادث الذي وقع للشيخ أحمد دغمان القماري(ت1309هـ/1891م) مع الشيخ سالم بوحاجب في مسجده بالعاصمة تونس، إذ حضر الشيخ أحمد دغمان لدرس الشيخ سالم، وبعد انتهائه وجه إليه سؤالا محرجا، فنهره وأسكته، وكان يظنه من سكان الجريد التونسي، فكتمها الشيخ أحمد في نفسه، وكتب بيتا في قصاصة صغيرة، وبعد الصلاة مر بالقرب من الشيخ سالم واسقط الورقة، وخرج مسرعا من المسجد، ففتح سالم الورقة فوجد فيها:

تنازلت لما تطاول سالم * وسالمت والغريب يسالم

فعرف قيمة الرجل، وطلب من أصحابه اللحاق به، ودعوته للشيخ في

المسجد، فتعارفا، واستضافه في بيته، وتحاورا في شتى فنون العلم وقضاياه،[51] وهذا المستوى العلمي لفقهاء المالكية في وادي سوف، الذي يكشف عن رسوخ أقدامهم في الفقه المالكي، ويجسد خصائص المدرسة المالكية في الجنوب الشرقي الجزائري.

الخاتمة

عرف وادي سوف بالعلم، واشتهرت بحفظ رجالها للقرآن الكريم، ورسوخ قدم علمائها في المعارف الفقهية، والنوادر الأدبية واللغوية، وما تبعها من فروع العلم، وقضايا الشرع، وكان للمذهب المالكي نصيبه الأوفى من ذلك الفضاء المعرفي والسلوك الديني على حد سواء، ويمكن الوقوف على بعض الحيثيات التالية:

لقد تطلب رسوخ المذهب المالكي بوادي سوف قرونا عديدة، وأزمنة مديدة، وجهودا أكيدة، تجددت على مدار خمسة قرون(1204–1790م)، إلى زمن مغادرة قبيلة زناتة البربرية الاباضية المذهب، إلى واحات الجنوب الشرقي في وادي ريغ، وورجلان ووادي ميزاب، تاركة المجال رحبا للمذهب المالكي الذي تغلغل في حياة القبائل العربية الوافدة ولاسيما قبيلتي عدوان وطرود ومن والاهم من الأخلاط، والأشراف الذين هاجروا في فترات متلاحقة.

ويعتبر الشيخ خليفة بن حسن القماري(1711–1796) من أوائل الفقهاء الذين جذروا قواعد المذهب المالكي وأصوله في المجتمع، بدروسه التعليمية، ومواعظه اليومية، ومنظوماته الفقهية، المواكبة للوقائع والنوازل الاجتماعية، داخل المنطقة وخارجها، واقتفى أثره التلاميذ الأوفياء، واستمر ذلك العطاء والتبليغ في المساجد، وتلته الزوايا التي بدأت تظهر جليا في وادي سوف في نهاية القرن الثامن عشر وخصوصا الرحمانية والتجانية، وكانت كتب المالكية هي المادة الأولية في الدروس العلمية التي تقدم المبادئ للطلبة والعامة.

وتميزت وادي سوف بالمدرسة الفقهية المالكية، وعرفت بخصائصها العامة، وملامحها الخاصة . وفي الغالب الأعم . هي امتداد طبيعي للمدرسة الفقهية المالكية بالقطرالجزائري، أخذا وعطاء، لتمسكها بالأصالة واعتمادها على آراء جهابذة علماء المذهب، مع فتح باب الاجتهاد في المسائل المستجدة، وعند اقتضاء الضرورة، فتلجأ المدرسة إلى التيسير، والتخفيف على الناس، وتذليل الصعب، وفك المعقد المستعصي من أفعال العباد.

وسعى علماء المنطقة إلى تعليم أصول المذهب ونشره في المجتمع وخارجه، بالاعتماد على أشهر المختصرات والمتون والحواشي، وعلى رأسها مختصر خليل، ومتن ابن عاشر، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشروح موطأ مالك وغيرها من المصنفات. واعتماد المنظومات والرسائل الفقهية المؤلفة من علماء وادي سوف، كمادة محورية في الفقه المالكي لأشهر العلماء كالتليلي والعوامر والعبيدي، والتي لقيت قبولا واستحسانا من علماء الزاب ووادي ريغ، وتعدتها إلى البلاد العربية، واستقطبتها مطابعها في مصر، إذ طبعت منظومة خليفة بن حسن في مختصر خليل، وفي تونس احتضنت مؤلفات الشيخ العوامر، وكانت تعريفا بالمذهب في ربوع وادي سوف وأطرافها، وجسدت معاني التواصل وتبادل المسائل العلمية ولاسيما مع علماء الزيتونة وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم الرياحي، والشيخ سالم بوحاجب، ومحمد المكي بن عزوز، والشيخ محمد الخضر حسين وغيرهم من فطاحل العلماء، وأكابر الفقهاء، وشهدوا لعلماء وادي سوف بالرسوخ في العلم، والتمكن من المعارف الواسعة، وكان الثناء مدار المجاملات، ورسول المحبة والوفاء.

وقد حفظ التاريخ لوادي سوف دورها الريادي في تبليغ أصول المذهب قي الآفاق القريبة، ونشر نوادره وفروعه في القرى والبوادي، وتعليم التلاميذ في الجنوب الشرقي، وتبادل المسائل والفتاوى مع علماء الخنقة وسيدي عقبة

ولاسيما الشيخ عبد المجيد بن حبة الذي عرف قدر العلماء، وأثنى عليهم أحسن الثناء، بداية من سيدي خليفة بن حسن، إلى العلامة الشيخ الطاهر العبيدي، والعوامر، وما زالت وادي سوف تدفع بعلمائها لخدمة الدين، ونشر العلم في ربوع البلاد طولا وعرضا، لأن رسالتهم هي التبليغ لكتاب الله وسنة رسوله، والمذهب المالكي يمثل الاقتباس من تلك الأنوار، روح الشريعة، وصفاء الإيمان، الذي امتزج بالنور المبين الذي حمله علماء المذاهب قاطبة، وهم من الله ورسوله يستمدون المعرفة والهداية، وكما قال البوصيري:

وكلهم من رسول الله ملتمس ❊ غرفا من البحر أو رشفا من الديم

الوادي يوم 5 مارس 2012

ـ الهوامش والإحالات:

1) انظر: عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، 1994 ج2، ص.247

2) إبراهيم العوامر: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977، ص 140.

3) انظر: حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس " عصر المرابطين والموحدين"، مكتبة الخانجي، ط1، مصر، 1980، ص .319

4) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص140–.172

5) الشيخ عرفة الشابي: هو سيدي عرفة بن مخلوف، ولد بالقيروان في حدود سنة 878هـ/1473م، وكان والده في موسم الحج بالحجاز، فسماه عرفة تيمنا بالموسم العظيم عند رجوعه إلى القيروان، عاش طفولته في زمن الدولة الحفصية، ويومئذ ازداد تمرد الأعراب، فانقضوا على المراكز الحضارية، فتصدى لهم السلطان أبو عمرو عثمان؛ وبدأ عرفة في طلب العلم على علماء بلده ولاسيما والده، الذي حفظه القرآن، ثم تتلمذ عليه في علوم التوحيد والفقه وصار يعرف عند المشارقة بالمالكي، كما أخذ عنه التصوف وأصول الطريقة، وكانت وفاته سنة 949هـ/1452م أنظر: علي الشابي: عرفة الشابي رائد النضال في العهد الحفصي، الدار العربية للكتاب، تونس– ليبيا، 1982، ص ص 34–48. ابن العماد الدمشقي:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط1، دمشق- بيروت، 1993، مج 10، ص 397.

6) انظر: محمد العدواني، تاريخ العدواني، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت،1996، ص ص 111-115.

7) علي غنابزية: الشيخ سيدي مصباح بن سيدي سالم ومآثره في الزاوية السالمية بوادي سوف، مطبعة مزوار، ط1، الوادي، الجزائر، 2009، ص .07

8) انظر: إبراهيم العوامر، الصروف، ص ص 192-194.

9) انظر: سالمي مصطفى، الدر المصفى، تحقيق وتعليق علي غنابزية، مخطوط، ص94.

10) انظر: مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،ط2، الجزائر،1981، ص ص 83-84.

11) أغلب الكتب المذكورة لعلماء المالكية، وكانت مشهورة في مختلف الحواضر والبوادي. أنظر مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص85.

12) : نفسه، ص87.

13) انظر: علي غنابزية، الفقيه الفاضل خليفة بن حسن القماري، جريدة النبأ، العدد 216، من 9 إلى 15 أوت 1995.

14) انظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ج2، ص77.

15) نفسه، ج1، ص284.

16) انظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 144.

17) نفسه، ص 144.

18) انظر: اوجين فايسات: تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792-1873، ترجمة صالح نور، تقديم عبد الرحمن شيبان، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2010، ص 45.

19) علي غنابزية: مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن الثالث عشر(هـ)التاسع عشر (م)، رسالة ماجستير مرقونة، تحت إشراف الأستاذ د/عمر بن خروف، جامعة الجزائر، 2001، ص ص152-.153

20) عاشوري قمعون: الشقيقان، مطبعة مزوار، ط1، الوادي، الجزائر، 2010، ص ص 16-

28.

21) نفسه، ص ص 80–81.

22) انظر: علي غنابزية، الشيخ الميداني موساوي الفقيه المتعفف، جريدة النبأ، السبت 27 رجب 1420هـ/06 نوفمبر 1996.

23) مبروك الشامسي: سيرتي ونشاطي فيما مضى من حياتي، مذكرات، مرقونة، تحقيق وتقديم علي غنابزية، ص 72.

24) انظر: محمد الطاهر التليلي: إتحاف القارئ بحياة خليفة بن حسن القماري، مخطوط، ص ص 5–6. علي غنابزية، الفقيه الفاضل خليفة بن حسن القماري، جريدة النبأ، العدد 216، من 9 إلى 15 أوت 1995.

25) انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 77.

26) انظر: محمد عز الدين عباسي: تحفة السالك إلى خير المسالك فتاوى وإرشادات في رحاب الدين والحياة، مطبعة مزوار، ط1، الوادي، الجزائر، 2008، ج1، المقدمة بدون ترقيم الصفحات.

27) الجيلاني العوامر: أعمال العلامة إبراهيم بن محمد الساسي العوامر، محاضرة في الندوة الفكرية الرابعة لجمعية محمد الأمين العمودي، بالوادي،1991، ص 13.

28) انظر: محمد عز الدين عباسي: المصدر السابق، ج.1

29) عاشور يقمعون: الشيخان، مطبعة مزوار، ط1، الوادي، الجزائر، 2010، ص ص 23–24.

30) لقاء مع رزاق هبلة بشير المدعو (قبله) بالوادي يوم 1996/10/12. لقاء مع الإمام قدة التجاني في بيته بحي النجار بالوادي يوم 2012/04/01.

31) لقاء مع أحمد خراز ببيته يوم 2012./03/18

32) لقاء مع الشيخ محمود القروي ببيته بالوادي يوم 1998./03/14

33) لقاء مع الشيخ لزهاري قديري بدكانه الشهير يوم 1996./06/30

34) انظر: الشقيقان، ص 121.

35) لقاء مع الأستاذ بشير العوامر، في بيت رزوق العائش بحي 300 سكن بالوادي، يوم 2012./03/31

36) لقاء مع الإمام قدة التجاني في بيته بحي النجار بالوادي يوم 2012/04/01.

37) ذكر لي أحمد خراز ببيته يوم 2012/03/18، أن الكتاب كان عند الصادق فطايم بقمار، وأن الشيخ احنيش الحبيب أتى بجزء منه مكتوبا، ورآه الخراز، وتمعن في مادته، والكتاب الآن لا يزال مفقودا.

38) انظر: شرح ابن عاشر المسمى الحبل المتين على نظم المرشد المعين علي الضروري من علوم الدين في مذهب الإمام مالك، دار رحاب، الجزائر، (ب ت)، ص 30.

39) لقاء مع أحمد خراز في بيته بالمصاعبة بالوادي في ذكرى المولد النبوي يوم 12ربيع الأول 1433/5 فيفري 2012.

40) بن علي محمد الصالح: 1500 مثل وحكمة شعبية من وادي سوف، مطبعة الشهاب، ط1، باتنة، الجزائر، 1998، ص 14.

41) انظر: شرح ابن عاشر المسمى الحبل المتين، ص 37.

42) المصدر السابق، ص ص 23-24.

43) بن علي محمد الصالح، المرجع السابق، ص 66.

44) نفسه، ص49.

45) نفسه، ص95.

46) عبد الرحمن الفقيه: الموقع الالكتروني، ملتقى أهل الحديث، يوم 08/04/ 2012.

48) بن علي محمد الصالح، المرجع السابق ، ص 17.

49) انظر: الشيخان، المرجع السابق، ص 19.

50) انظر: علي غنابزية، الحركة العلمية بوادي سوف منذ القرن السادس الهجري وآثارها الفكرية المدونة، ضمن كتاب وادي سوف، نشر الجمعية الثقافية للمركز الثقافي محمد ياجور بقمار، مطبعة مزوار، الوادي، 2008، ص ص 97-10.

51) لقاء مع أحمد خراز بالوادي يوم 1995/03/13.